المورد

تعقيب على «تاريخ فن العمارة الاسلامية»

بقلم الاستاذ
سعيد الديوه جي
الموصل ـ محافظة نينوى

(١)

فن العمارة الاسلامية موضوع طريف ، جدير بالتتبع والدراسة ، واظهار ما فيه من روائع الفن ، وتخطيط دقيق ، واحكام في الانشاء ، وابداع في الزخرفة وغير ذلك من مظاهر الجمال في الذروة بين فنون العالم ، وله طابعه العربي الاسلامي .

وقد احسن الاستاذ شريف يوسف في بحثه هذا(١) . وكان من المستحسن ان يشير الى المصادر التي استعان بها واخذ عنها ، لتعين القارىء اذا اراد ان يتاكد من نص ، او يتوسع في موضوع . كما ارى من المناسب ان يستعمل التاريخ الهجري قبل التاريخ الميلادي لانه يؤرخ لحوادث عربية اسلامية ، سجلت في تاريخهم الهجري ـ لا في التاريخ الميلادي ـ فذكر الحادثة في التاريخ الذي دونت فيه ادق في النقل من ذكرها بتاريخ اخر ، اذ ربما يحدث تفاوت في الشهر او اليوم ، كما علينا ان نحرص على استعمال التاريخ الهجري ونذكر معه ما يوافقه من سني التاريخ الميلادي .

وقد استفدت من قراءة البحث ، ووجدت فيه ما يحتاج الى تدارك : ومن ذلك

(٢)

جاء في (ص : ٨) ما ياتي :

« ضعفت الدولة الفاطمية ، وكان العاضد آخر خلفائها ، فحاول الصليبيون غزو مصر ، فارسل نور الدين السلجوقي سنة ١١٦٨م جيشا من الشام بقيادة شيركوه وابن اخيه صلاح‌الدين للدفاع عنها .. »

ان نورالدين محمود بن عمادالدين زنكي لم يكن سلجوقيا ، ابوه عمادالدين زنكي مؤسس الدولة الاتابكية في الموصل ، وبعد موت عمادالدين ، تولى ابنه سيف‌الدين زنكي في الموصل ، وابنه الثاني نورالدين محمود في حلب . وهو من اشهر ملوك الاتابكة . والاستاذ شريف نفسه ذكر الدولة النورية ، وما كانت عليه البلاد السورية في عهد نورالدين ، وما قام به نورالدين من اختلاف العمارات فيها . فكيف جعل نورالدين سلجوقيا . نعم انه عاش في عهد السلاجقة ، ولكنه لا ينتسب اليهم ، فهو اتابكي بل من اشهر ملوك الاتابكة .

(٣)

وجاء في (ص : ١٠) عند كلامه عن اهتمام السلاجقة في العمارة :

« ... وفي هذا الدور استحدثت الزخارف المحفورة على الحجر والجص ، كما في مساجد الموصل وكنائسها وقصورها ، وفي المسجد النوري محرابان من الحجر تزينهما زخارف التوريق النباتية الجميلة . وكانت معظم الابنية تزين واجهاتها بالخط الكوفي الجميل ، وفي قصره سراي في الموصل تظهر الزخارف السلجوقية بكل وضوح »

ان الزخارف المحفورة في المرمر وفي الجص لم تستحدث في زمن السلاجقة ، وانما هي قديمة ـ في الموصل وغيرها من البلاد ـ قبل السلاجقة بقرون عديدة ، وقد خلف الاشوريون وغيرهم آثارا كثيرة منها . فزخرفة المرمر والجص باختلاف الطرق قديمة ، فنجدها في الآثار الاشورية ـ مثلا ـ زينوا بها بناياتهم ومنشآتهم ، وصوروا عليها مظاهر حضارتهم ، وحروبهم واعمالهم العمرانية ، ودونوا عليها علومهم وفنونهم ، ومتاحف الشرق والغرب غنية بما نقله علماء الآثار من بلاد الاشوريين وغيرهم ، خير شاهد على قدم هذه الزخرفة .

فالزخارف والكتابات على الصخور وغيرها لا تستحدث، وانما تتطور وتتهذب في كل عصر بما يضاف اليها من عناصر الزخرفة ، او بما يجريه عليها اصحاب الفن من الحذف والشطب والتهذيب والاضافة ، ما يجعلها تلائم عادات القوم وتقاليدهم ومعتقداتهم ، وكان من ذلك للزخارف السلجوقية طابع خاص في الحفر والتصوير والكتابات والتطعيم ، نجدها في آثار الموصل وغيرها من البلاد .

واما ما ذكره من ان معظم الابنية الموصلية تزين واجهاتها بالخط الكوفي الجميل ، فلم نجد في آثار الموصل ما ذكره ، اللهم الا بعض الكتابات في واجهة مشهد الامام يحيى بن القاسم ، وفي مشهد ابن الحسن ـ الامام عون‌الدين ـ ففي واجهاتها كتابات في الخط الكوفي وغيره ـ

(١) نشر في مجلة المورد ، المجلد الخامس ، العدد الثالث ١٣٩٦هـ ـ ١٩٧٦م

ونجد داخل البنايات تكون الكتابات والزخارف كثيرة ، في المرمر ، والجص ، والاجر ، نافرة وغائرة او مطعمة بالمرمر . وهي بالخط الكوفي وغيره من انواع الاقلام . اما واجهات البنايات فتكون الكتابة عليها قليلة ، بالنسبة الى ما هي عليه في داخل البناية . لان هذه تكون محفوظة من تاثير العوامل الطبيعية ، فكانوا يحرصون على الاكثار منها داخل البناية .

وليس في قره سراي من الزخرفة ما تظهر به الزخرفة السلجوقية بكل وضوح ، فالزخارف التي فيه قليلة جدا ومحدودة النوع . واما في غيره من الاثار التي ادركناها فهي كثيرة وتكون مثالا رائعا لما كانت عليه الزخرفة في عهد السلاجقة من الدقة والجمال ـ نجد هذا في مرقدي الامامين يحيى بن القاسم ، وابن الحسن ، وقبر الامام علي الهادي ، وفي الجامع النوري قبل تجديده ، وفي بعض المدارس الاتابكية التي انشئت في هذه الفترة .

(٤)

وجاء في (ص : ١٠) قوله :

« وقد وصلت الموصل الى قمة مجدها ايام حكم الاتابكة وكان بدرالدين لؤلؤ الاتابكي اشهر حكامهم ، فقد استطاع ان يتفاهم مع المغول الغزاة ، فجنب مدينة الموصل شرهم، ولكن ابنه ملكشاه حاول ان يقاوم هولاكو فكانت النتيجة قتله وتدمير الموصل .

لم يكن بدرالدين اشهر حكام الاتابكة . بل كانت اعماله في البلد غير مرضية ، لما عرف عنه من الظلم والقتل والتشويه والمصادرة . وهو مملوك ارمني ، اتخذه نورالدين ارسلانشاه الثاني وصيا على اولاده ، فكاد لهم ـ بعد وفاة ابيهم ـ واحدا بعد الاخر ، وقضى عليهم . فاستقل في الملك ، واساء الادارة بظلمه وشدة قسوته ، وما كانت عليه الموصل من الازدهار ـ في عهده ـ انما كان بفضل الملوك الاتابكة وما كانوا عليه من نشر الامن والرخاء ـ (٢)

وابن بدرالدين لؤلؤ لم يكن اسمه « ملكشاه » انما هو « الملك الصالح » الذي تولى بعد وفاة والده ـ والذي كان له مع المغول ما ادى الى قتله وتدمير الموصل سنة ٦٠٠ هـ

(٥)

وجاء في (ص : ١٠) ايضا

« بنى بدرالدين لؤلؤ قبر الامام يحيى ، واقام في المسجد منارة هرمية الشكل ، مثمنة الاضلاع والزوايا ، كما بنى الجامع الكبير في الموصل ، وجعله وسط المدينة ، واشتهر هذا الجامع بمئذنته المائلة (الحدباء) وهي اكثر المناثر العراقية تاثرا بالطراز السلجوقي ، ويبلغ ارتفاعها ٥٥ م . وفي داخل بدنها سلمان كلاهما يؤدي الى اعلى المنارة »

بنى بدرالدين لؤلؤ مشهدا للامام يحيى بن القاسم سنة ٦٢٧ هـ (٣) ولم يتخذ فيه مسجدا ولا مصلى ، كما انه لم يتخذ فيه منارة هرمية الشكل مثمنة الاضلاع والزوايا ، ولا يوجد في الموصل منارة كالتي ذكرها الاستاذ شريف يوسف ، حيدا لو اعلمنا عن المسجد الذي انشئت فيه المنارة والمصدر الذي نقل عنه .

والجامع الكبير الذي في الموصل بناه نورالدين محمود ابن عمادالدين زنكي ، ابتدأ فيه سنة ٥٦٦ هـ وانتهى منه سنة ٥٦٨هـ ، وكان في وسط اسواق المدينة ، ولم يزل يعرف بالجامع النوري ، ويسمى ايضا الجامع الكبير . وهو ليس من بناء بدرالدين لؤلؤ .

ومنارة الجامع النوري لا تسمى (بالحدباء) فالحدباء اسم لمدينة الموصل ، وليس للمنارة . وقد بسطنا القول عن الجامع النوري والمنارة التي فيه ، في كتابنا جوامع الموصل ـ (٤)

(٦)

وجاء في نفس الصفحة عند كلامه عما قام به الاتابكيون من تعمير المدارس :

« ... والمدرسة النورية التي فيها مشهد الامام يحيى ابن القاسم وفيها دفن بدرالدين »

بنى المدرسة النورية نورالدين ارسلانشاه بن عزالدين مسعود (٥٨٩ ـ ٦٠٧) انشاها في الميدان مقابل دور المملكة ، ودفن بها نورالدين بعد وفاته (٥) ـ لا بدرالدين ـ

واما بدرالدين لؤلؤ فانه انشا المدرسة البدرية قبل سنة ٦١٥ هـ على دجلة ، وبنى الى جانبها مشهد الامام يحيى ابن القاسم سنة ٦٣٧ هـ ـ ودفن في هذا المشهد بعد وفاته سنة ٦٥٧ هـ (٦) .

وعليه فالمدرسة البدرية تقع على دجلة بجانب مشهد الامام يحيى بن القاسم الذي دفن فيه بدرالدين لؤلؤ ، ولم يزل المشهد باقيا الى اليوم .

اما المدرسة النورية فهي داخل الميدان ، بعيدة عن دجلة ، تقابل دور المملكة ، واتخذ فيها بدرالدين لؤلؤ مشهدا للامام عبدالرحمن ، بعد ان تولى الملك ، وصارت تعرف بمشهد الامام عبدالرحمن . لان بدرالدين اقام مشاهد لآل البيت في بعض المدارس التي انشاها الاتابكة ، ليطمس معالمهم ، ويقاوم الحركة العدوية التي كانت في الموصل . والتي كانت تقاوم اعماله وظلمه .

وفي سنة ١٣٧٩هـ (١٩٥٩ م)بنى المحسنون جامعا في هذه المدرسة . عرف بجامع الامام عبدالرحمن .

هذا ما احببت ان ابينه ، وهو لا ينقص من قيمة البحث الدقيق الذي كتبه الاستاذ شريف يوسف . اكرر تقديري لجهوده في خدمة تراث الاجداد ، وفقه الله وسدد خطاه .

---

(٢) انظر : ترجمة الاولياء في الموصل الحدباء لاحمد بن الخياط الموصلي ـ تحقيق : سعيد الديوجي الموصل ١٣٨٥ (ص : ٦ ـ ١٠)

(٣) نشرنا عنه بحثا في سومر (٢٤)

(٤) جوامع الموصل . سعيد الديوجي ـ بغداد ١٣٨٢هـ ـ ١٩٦٣م (ص : ١٧ ـ ٥٥)

(٥) انظر عنها : « سومر : ١٣ : ١١٠ ـ ١١٢ » الموصل في العهد الاتابكي ـ سعيد الديوجي ـ بغداد ١٣٧٨هـ ـ ١٩٥٨م (ص : ١٤٢ ـ ١٤٤) جوامع الموصل (٢٥٦ ـ ٢٥٩)

(٦) سومر : (١٣ : ١١٤ ـ ١١٦) ، الموصل في العهد الاتابكي : ١٤٧ ـ ١٥٠